الفصل الثامن :

سيكولوجية الأدلة الجنائية

- دور الأدلة العلمية في الأحكام القضائية .
- اختلاف درجة اليقين في الأدلة العلمية .
- مدى تأثير شهادة الخبراء .
- دراسة العوامل المؤثرة في شهادة الخبراء في قضايا الاعتداء الجنسي على الأطفال .
- تحليل شهادة الخبراء في جرائم الاغتصاب .
- عرض المعلومات العلمية على المحلفين أو من يقوم بدورهم حيث يمكن أن يقلل من أحكام الإدانة أو القرار بأن المتهم مذنب .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن :

سيكولوجية الأدلة الجنائية

يتناول هذا الفصل المتواضع كثيرًا من الموضوعات المتصلة بمصداقية شهادة الخبراء أمام المحاكم وسلطات التحقيق وبيان دور الأدلة العلمية في الأحكام القضائية ومدى اعتماد القضاء على الأدلة العلمية والإنجازات والاكتشافات العلمية ، وذلك للبحث في مدى صدق الأدلة التي تعرض للمحكمة سواء من قبل الادعاء أو الدفاع ، ولا شك أن الأدلة العلمية تختلف في درجة يقينها أو صدقها وثباتها ومدى اتفاق العلماء حولها . كما يشير هذا الفصل المتواضع إلى مدى حاجة المحاكم إلى الخبرة الفنية من الخبراء في مجالات الصحة العقلية وعلم النفس عمومًا وفي مجالات الهندسة والكيمياء والبيولوجيا وغير ذلك من التخصصات .

ولقد أتضح أن هناك حاجة إلى المزج بين الخبرة المهنية للخبير في مجال عمله وبين الأدلة العلمية أو الحقائق العلمية .

ويتناول هذا الفصل للتعرف على مدى تأثير شهادة الخبراء في الأحكام القضائية . ومن الموضوعات الهامة كذلك بحث مدى الصدق في شهادة الأطفال أمام المحاكم ومدى تأثر شهادة الطفل بمن يقوم بتلقينه الشهادة أو الإيحاء إليه إلى جانب تحليل شهادة الخبراء في جرائم الاعتداء على الأطفال وجرائم الاغتصاب وكيف تتأثر شهادة الشاهد بعوامل مثل النسيان وفقدان الذاكرة أو الجنون أو المرض العقلي ، وتوضح الدراسة مقدار تعقد السلوك الإنساني وتشابك العوامل المؤثرة فيه ، الأمر الذي يتطلب أن تراعيه هيئات التحقيق والمحاكم .

Abstract

The Psychology of criminal evidence

This study aims to investigate the truthfulness, accuracy and credibility of expert testimonies in criminal cases . The study also aims at investigating the validly and reliability of the scientific tools which are used to obtain information about topics such as mental health expertise on matters such as criminal responsibility, child sexual abuse allegations and competency to participate in legal proceedings .

The study examines the effects of expert knowledge on accuracy and reliability of eyewitness memory and the impact of expert testimony . Rape crimes are viewed in this study in cases of recovered memories and the ethical issues in this respect . The study calls for more cooperation between psychologists and professionals in legal fields .

هناك كثير من العوامل النفسية التي تؤثر في الأدلة الجنائية وفي مدى صدقها أو مصداقيتها وثباتها وصحتها ، وكذلك فيما يتعلق بأسلوب الحصول على الدليل وخاصة تلك الأدلة المستمدة من شهادة شهود العيان ومن التقارير الفنية التي يقدمها الخبراء في كافة التخصصات حول صحة هذه الشهادات ومصداقيتها وثباتها وخاصة فيما يتعلق شهادة الأطفال الذين يتعرضون للاعتداء أو الاغتصاب .

وتستعين المحاكم في إنجلترا وفرنسا وألمانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية بكثير من الخبراء في مختلف التخصصات وميادين المعرفة كالهندسة والكيمياء والبيولوجيا وعلم النفس التجريبي وعلم النفس الإكلينيكي . ولا شك أن شهادة الشهود تتأثر بعوامل النسيان وفقدان الذاكرة وكذلك يتأثر الإنسان في عملية إدراك الواقعة بعوامل الخوف والاضطراب والفزع والضغط ولذلك تتم عملية تسجيل الخبرة في الذهن بصورة خاطئة . ويسهم العلماء والخبراء في تحديد مدى المسئولية الجنائية للجاني أو تقرير إعفائه من هذه المسئولية تأسيسًا على إصابته بالجنون .

دور الأدلة العلمية في الأحكام القضائية :

لقد أصدرت المحكمة الأمريكية العليا قرارًا في عام (1993) في دوبيرت Daubert ضد شركة Merril Dow pharmaceuticals لوضع الشروط التي تقبلها المحاكم الفيدرالية لقبول الأدلة العلمية scientific evidence والتي قد تؤسس عليها حكمها . ولا شك أن للأدلة العلمية خصائص معينة في كيفية الحصول عليها وفي المناهج المستخدمة في الحصول عليها والأدوات المستخدمة في تقدير والقياس والملاحظة أو التسجيل أو التحليل ، وكذلك مبلغ اتفاق العلماء حولها . ولقد دار جدال في قضية دوبيرت هذه حول شهادة الخبراء أو تقارير الخبراء تلك التي يقدمونها للمحاكم للاستعانة بها عند إصدار الأحكام the testimony of experts ، وكان هذا الجدال العلمي والقانوني يدور حول إمكانية أن يؤدى دواء خاص مضاد للقيء يؤدي إلى حدوث ضعف ميلادي في الطفل أي ضعف يولد الطفل مصابًا به إذا ما تعاطت الأم في أثناء فترة الحمل هذا العقار anti–nausa drug باعتبار ذلك من آثار ه السلبية ومعروف أن معظم النساء يعانين من الميل للقيء أو الاستفراغ في مرحلة الحمل بصورة قد تكون مزعجة للأم الحامل responsible for birth defects وكان هذا العقار على وجه التحديد هو عقار Bendectin ، مثل هذا الجدال قد يثار أمام المحاكم في دعاوى طلب التعويض من شركات بيع التبغ عن الإصابة بالسل الرئوي من إجراء التدخين .

ولقد شك الدفاع في هذه القضية في صحة الأدلة وطالب بعمل تقويم أو تقدير أو قياس لصدق هذه الأدلة assessment of the scientific validity بمعنى عدم صدق المعطيات أو المعلومات ، وعدم صحتها أو اتفاقها مع الحقيقة . ويلاحظ أن النظريات والكشوفات أو الإنجازات العلمية قابلة للتغيير والتطوير ، فالعلم من خواصه الدينامية والتطور والتقدم ، كما أن صحة النتائج العلمية تتوقف على أمور كثيرة منها العينة التي أجريت الدراسة عليها ، وكذلك على دقة الاختبارات والمقاييس والأجهزة ، وعلى كفاءة الباحث وحيادة وعلى حجم عينة الدراسة ، وأساليب التحليل أو المعالجات الإحصائية ، ولذلك فللقاضي أن يتفحص الأدلة التي يقدمها له الخبراء وسائر الشهود للتحقيق من صحتها أو بطلانها . والعلم ليس مقدسًا ولكنه ظاهرة متغيرة .

مدى صدق الأدلة :

وهناك عوامل لا بد من دراستها عند قبول صدق الأدلة العلمية التي يقدمها الخبراء وهي:

1) تزييف الأدلة أو زيف الأدلة Falsifiability .
2) معدلات أو مقدار الخطأ في النتائج أو في الأدلة Error rates .
3) تلخيص الباحثين الآخرين أو عرضهم للنتائج Peer review .
4) القبول العام لهذه النتائج General acceptance .

ومن ذلك قابلية المعطيات أو الأدلة للقياس والتجريب وإمكانية الحصول عليها مرة أخرى . مثل هذه الأدلة قد يعتريها الخطأ كما هو الحال في عملية التشخيص الطبي للحالات التي تعرض على المحاكم diagnosis ، فقد يختلف الأطباء أو الخبراء حول تشخيص حالة بعينها . ولذلك يلزم التمييز بين الأدلة العلمية والأدلة غير العلمية . والتشخيص الطبي قد لا يكون دقيقًا مائة في المائة في جميع الحالات .

ومن الحالات الصعبة في عملية التشخيص التي واجهت المحاكم مدى الإقرار بمعاناة المرأة التي تعرضت لجريمة الاغتصاب rape ، ومدى إصابتها بما يعرف بزملة أعراض صدمة الاغتصاب rape trauma syndrome فهل جميع ضحايا جريمة الاغتصاب rape victims ينطبق عليهن هذا التشخيص بالضرورة وكم في المائة تبلغ نسبة الضحايا اللائي لا ينطبق عليهن هذا التشخيص ؟ كذلك فإنه يتعين على المحاكم ، وهي بصدد قبول آراء الخبراء ، أن تتحقق من مبلغ مصداقية الخبير وخبرته أو معارفه أو مهاراته المهنية والتخصصية the credibility of an expert's knowledge .

ويمكن التحقق من ذلك عن طريق التعرف على آراء زملاء هذا العالم في هذا الحقل أو ذاك ، وعما إذا كانت أعماله قد نشرت في المجالات أو الدوريات العلمية من عدمه ، ولكن يلاحظ أن النشر ، في حد ذاته ، ليس دليلاً على جودة البحث وصدق نتائجه ، ذلك لأن النشر قد يخضع لاعتبارات مالية أو لعوامل مثل المحسوبية والمحاباة وما إلى ذلك .

ولكن الأهم من مجرد القبول للنشر أو موافقة العلماء على البحث ، المهم هو الدقة العلمية أو صمود المعطيات العلمية scientific rigour .

وتزداد صعوبة الأدلة المستمدة من الخبراء ومن نتائج الدراسات العلمية في حقل الصحة العقلية والشهادات التي تقدم للمحاكمة بشأن الحالة العقلية للمجرمين mental health testimony وتقرير مدى تمتع المجرمين بالصحة العقلية أو إصابتهم بالمرض والجنون .

اختلاف درجة اليقين في الأدلة العلمية :

تختلف الأدلة العلمية باختلاف المجال العلمي أو التخصص العلمي ، فهناك مجالات أكثر وضوحًا وأكثر خضوعًا للعلم من غيرها . ففي مجال الصحة العقلية تعتمد الأحكام على التقدير الإكلينيكي أي السريري أي الفحص العام الذي يقوم به الطبيب دون الاعتماد على المقاييس والاختبارات الموضوعية والمقننة والمجربة والثابتة والصادقة clinical judgments والمحكمة ما زالت هي الخبير الأعلى ، فلها أن تفحص الدليل وأن تقبله أو ترفضه .

وفي المملكة البريطانية المتحدة أظهر القضاة عدم ثقة في شهادة الخبراء أمام المحاكم ، ولذلك تم إتباع منهج أطلق عليه منهج المعادة أو الخصومة أو التخاصم adversarial system وفي أوربا هناك دور رئيسي للقضاة في هذا الشأن ، ولهم الصلاحية الأكبر في إعداد الأدلة وتقديرها preparation and evaluation of evidence وفي توجيه الأسئلة للشهود حول موضوع الدعوى .

وفي ألمانيا وفرنسا يقوم القضاة بصورة تلقائية بتعين الخبراء experts ويتم توجيه الأسئلة للمتهم the defendant عن طريق القضاة أنفسهم بينما يقوم المحامى advocate بتوجيه الاعتراضات على الأسئلة أو البحث عن أدلة إضافية أو معلومات إضافية . ويستعين القضاة هناك بعلماء النفس لمساعدة القضاة في بعض الأمور العلمية . وللخبير أن يعرض أدلته بحرية ، وقد يتدخل أو قد تطلب منه المحكمة التدخل لفض صراع ما يقوم بين أطراف الدعوى ، ويقدم الأدلة في شكل مختصر للتراث العلمي أو الخلفية العلمية للموضوع المطروح أمام المحكمة ، وبيان نتائج وخلاصات الأبحاث في هذا الموضوع أو ذاك .

ومثل هذا الأسلوب يعطى الحرية للقضاة أو المحلفين لتحقيق التوازن بين الأدلة المعروضة عليهم من الخبير .

وهناك نظامان يطلق عليهما نظام الخصومة ونظام التحقيق القضائي أو الاستجواب القضائي أمام هيئة المحلفين Adversarial V. inquisitorial systems في تقديم الأدلة .

حاجة المحاكم إلى المعلومات الفنية :

وفي عام 1993 رأى مركز القضاء الفيدرالي الأمريكي أن تعيين المحاكم للخبراء له أهمية كبيرة فيما تتوصل إليه المحكمة من قرارات للحصول على معلومات فنية أو مهنية في مجالات مثل الطب والطب العقلي والهندسة والكيمياء .

ومن ذلك احتياج المحكمة في حالة النظر إلى قضايا الإصابات الشخصية personal injury وأنه لا بد من استدعاء الخبراء في الطب medical experts لتقدير وتحديد طبيعة الجروح أو الإصابات أو العاهات والحكمة على مآل أو مستقبل هذه الجروح prognosis أي عما إذا كان الجرح سوف يلتئم أم أنه سوف يترك عاهة مستديمة ، أو تحديد المدة التي يستغرقها العلاج والتكلفة ، وتساعد هذه المعلومات المحلفين ومن بعدهم القضاة في اتخاذ قرارات مؤسسة على معلومات دقيقة .

وفي بعض الحالات لا يلعب علماء النفس الذين تطلبهم المحكمة إلا دور النصح للمحكمة فقط والتشاور مع المدعي والمحامي attorney ويقدمون تقارير للمحكمة حول هذه المسائل الخاصة بشهادة الشهود ، ويستخدم الخبير في مجال علم النفس الإكلينيكي كلاً من خبرته المهنية والمعطيات أو المعلومات أو الحقائق والنظريات العلمية معًا أي :

الخبرة المهنية + الحقائق العلمية

ويتم استدعاء علماء النفس في بعض القضايا المدنية civil cases في الأمور التي تتعلق بالحالة العقلية mental state وتقدير مدى قدرة المتهم أو إمكانيته capability أي قدرته العقلية ، وكذلك يتم الاستعانة بخبراء الصحة العقلية في قضايا النزاع حول حضانة الأطفال الصغار child custody disputes وفي القضايا الجنائية criminal cases .

يهتم علماء النفس بمسألة إصابة المتهم بالجنون من عدمه sanity ومبلغ كفاءته أو قدرته على المثول أمام المحكمة وهيئات التحقيق competency وكذلك لتقرير مدى خطورة المتهم في المستقبل إذا ما تم إطلاق سراحه ، وذلك على حياته وعلى حياة المجتمع . والمقارنة بين حريته الشخصية التي كفلها الدستور وبين أمن المجتمع .

وفي بعض الحالات قد تقبل المحكمة آراء الخبراء لأن المحكمة هي التي تعيين الخبير ،

ولذلك فهو يعد شاهدًا لهذه المحكمة وليس شاهدًا لأحد أطراف الدعوى كالمتهم أو المجني إليه أو المدعى بالحق المدني .

وعلى هذا النحو فإنه من المفترض بالنسبة للخبراء حيادهم وموضوعيتهم فيما يقدمونه من أدلة للمحكمة ، وذلك خلافًا للخبير الاستشاري الذي يكلفه الخصوم .

وفي بعض الحالات كما هو الوضع في القضاء الفرنسي ، فإن القاضي هو الذي يسيطر على البحث الذي يجريه الخبير control the expert's investigations ويدير العملية كلها .

مدى تأثير شهادة الخبراء :

يتساءل بعض رجال القضاء والعلماء عن تأثير شهادة الخبراء أمام المحاكم ، وعما إذا كان ذلك يشكل خطورة ما للعدالة the impact of expert testimony in the courtroom وعما إذا كان يفيد هيئة المحلفين ؟ على كل حال ، هناك حالات ترفض فيها المحاكم شهادة الخبراء وذلك :

إذا لم يكن هناك أدلة علمية تؤيد شهادة الخبير أو إذا لم تستند شهادته لأساس علمي أو لنظرية من نظريات العلم تشرح هذه الشهادة ، وإذا لم يكن البحث يتمتع بصفة الثبات reliability أي أننا نحصل على نفس النتائج كلما أعدنا إجراء نفس هذه التجربة أو ذلك القياس على نفس العينة من الأفراد تحت نفس الظروف ، وإذا لم تكن المعطيات أو المعلومات قد تم تطبيقها في المختبرات والمعامل وفي المجتمع الخارجي .

والحقيقة أن هناك كثيرًا من البحوث العلمية التي توضح الكثير من الحقائق حول شهادة شهود العيان ، ومدى دقتها أو تعرضها للخطأ والنسيان . ويفهم هذا الأمر فهمًا جيدًا علماء النفس التجريبيون أكثر من علماء النفس في الحقل الإكلنيكي أي العيادي أو السريري أو العلاجي ، فهناك أسس علمية للمفاهيم والمبادئ السيكولوجية وخاصة في عمليات مثل الإدراك الحسي ، والعوامل المؤثرة فيه ، وكذلك عملية التذكر والنسيان وعملية الإحساس ، والانتباه ، وعملية التفكير والاستدلال وإدراك العلية والمعول وما إلى ذلك .

وقد يرفض المحلفون الأدلة التي يقدمها الخبير العلمي إذا لم تكن هذه المعلومات مفيدة لهم في الدعوى المنظورة أمامهم . ولكن المحلفين قد يكونون على قدر من التعصب ضد الأدلة العلمية . كذلك قد يتم رفض هذه الأدلة عن طريق الاستجوابات المتعددة والمتقابل للشهود ولأطراف الدعوى بسؤال أكثر من شاهد في نفس الموضوع المنظور أمام المحكمة .

ولكن التساؤل الجوهري يدر حول مدى تأثير شهادة الخبراء في قرارات المحكمة ؟ هل يساعد الخبراء القضاة في التمييز بين شهادات شهود العيان الدقيقة وغير الدقيقة ؟ accurate and inaccurate witnesses .

ويلزم الاستعانة بالخبراء في الأمور الفنية كمعرفة سبب الوفاة في جريمة قتل أو يلزم تحليل مواد الطعام في جريمة تسمم ، وينص قانون الإجراءات الجنائية المصري في مواده أرقام 85 ، 87 ، 292 ، على انه يمكن للقاضي الاستعانة بالخبراء للاستفادة من آرائهم في موضوع الدعوى .

مدى صحة شهادة الأطفال أمام المحاكم :

في الغالب عندما يتم استدعاء الطفل للمثول أمام المحكمة للإدلاء بشهادته ، في الغالب ما يكون هو الشاهد الوحيد المتاح ، وتدر معظم هذه القضايا حول الاعتداء الجنسي على الطفل sexual abuse cases وقد يتم استدعاء أحد الأطباء النفسيين أو الأخصائي الاجتماعي لتأييد أو رفض شهادة الطفل . وهنا قد يدلى الخبير بمعلومات علمية حول شهادة الأطفال ، وإجراء المقابلات معهم . وقد يفيد الخبير المحكمة في الحكم على أقوال الطفل الذي يفترض أنه قد تم اغتصابه جنسيًا . وفي بعض القضايا يتم استدعاء الخبير لتقرير عما إذا كان الطفل قد تم اغتصابه فعلاً من عدمه ، وعما إذا كانت الأغراض التي يشكو منها الطفل تتفق مع تلك الأعراض التي يشكو منها الأطفال الذين يتم الاعتداء عليهم فعلاً .

ولكن الطفل قد يتم تلقينه الإجابة على أسئلة المحققين ، ويظل يرددها ويكررها هي هي دون تغيير ، وقد تبدو شهادته متماسكة ومتسقة مع بعضها ، وقد يختلف سلوك الطفل في المحكمة مع رأى الخبير ، الطفل الذي لا يتم تلقينه قد يبدو أقل مصداقية أمام المحكمة .

إعداد شهادة الطفل child witness preparation تساعد على بقاء الطفل هادئًا ورابط الجأش composed وتساعده في إعطاء استجابات ثابتة . فلقد تبين أن الأطفال الذين استعدوا ، والذين تهيأت لهم فرص الراحة كانوا أكثر شعورًا بالثقة بالنفس في أثناء عملية الاستجواب أو التحقيق معهم وكذلك كانوا أكثر مصداقية وهدوءًا composed and credible ، كذلك كانت شهادتهم أكثر اتساقًا وتماسكًا more coherent testimony بمعنى أنها لم تكن مفككة أو مهزوزة أو متناقضة ، الطفل هنا يبدو أمام المحقق هادئًا ورابط الجأش composed .

وفي إحدى التجارب الأمريكية تم تكليف الطفل بالإدلاء بشهادته أمام هيئة المحلفين بعد أن تم إعداده للشهادة كي يظهر أمامهم هادئًا وثابتًا ومستقرًا ، ثم طلب منه أن يعيد الإدلاء بشهادته ثانية أمام مجموعة من المحلفين على أن يبدو عصبيًا قلقًا ومتوترًا خائفًا مترددًا وكذلك التململ والعصبية fidgety أثناء عملية الاستجواب ، وفي المرة الأولى كان الطفل يبدو هادئًا وواثقًا من نفسه ، ولا تبدو عليه علامات الضيق ، بمعنى تقديم الشهادات المسجلة على شريط أمام المحلفين والطفل تحت تأثير الإعداد والتهيؤ ، وفي الحالة العادية شهادة الطفل أمام المحلفين في وضعين هما :

بعد الإعداد والاستعداد للإدلاء بالشهادة — دون تلقي الإعداد أو الاستعداد

فما هو الأثر الذي تركه هذا الوضع على تقدير المحلفين لهذه الشهادة في هذين الوضعين؟

وكذلك فإن شهادة الخبير تم تعديلها لمعرفة عما إذا كان لهذه الشهادة أثرًا أكبر على المحلفين impact عندما يربط الخبير بوضوح نتائج البحوث مباشرة بالقضية المنظورة أمام هيئة المحلفين ، بمعنى تقديم ما يسمى في هذه الدراسة بالشهادة المشخصة أو المجسدة أو المجسمة concrete testimony .

ولقد أتضح أن هذه النوعية من شهادة الخبراء تعطى معلومات أوضح للمحلفين حول الدعوى المنظورة أمامهم .

وفي التجربة الأخيرة تم عرض تفاصيل قضية على محلفين مزيفين أو مقلدين فقط mock Jurors بعرض القضية على شريط فيديو ، وفي هذه القضية كان المتهم defendant يواجه الاتهامات charges بارتكاب فعل جنسي إجرامي . وكان من بين شهود الإثبات فتاة صغيرة في سن ثمانية سنوات ، وكانت من ضحايا هذا المتهم victim ، وكذلك كان من بين الشهود أحد الخبراء ، وهنا أصبحنا أمام شهادة الطفلة المجني عليها في جريمة الاعتداء الجنسي ، وكذلك شهادة الخبير المنتدب من قبل المحكمة في هذه الجناية ، وتم تقديم شهادة الخبير أمام هيئة المحلفين بثلاثة صور مختلفة :

1) الشهادة بشكلها التقليدي ، حيث أعطى الخبير للمحلفين إشارة إلى بعض المخاوف الشائعة أو المعتادة لدى الطفل عند الاعتداء عليه جنسيًا .

2) الشهادة المشخصة أو المجسمة أو التفصيلية concrete testimony ، وفيها يتم تطبيق المعلومات والحقائق المتضمنة في الشهادة التقليدية standard testimony وتطبق هذه المعلومات على القضية المطروحة أمام هيئة المحلفين .

3) تقديم الشهادة بصورة متكررة ، حيث يقدم الشهادة التقليدية ويقوم الخبير بتلخيص المعطيات أو المعلومات أو الحقائق العلمية الناجمة عن الأبحاث التي أجريت في هذا الموضوع دون أن يربط بوضوح الأبحاث مع القضية المطروحة .

أي الحالات كان المحلفون أميل إلى الحكم بإدانة المتهم ?to convict the defendant

لقد تبين أن المحلفين المزيفين أو المقلدين mock الذين شاهدوا الشهادة التقليدية المتكررة والمرتبطة مع شهادة الطفل الذي تم إعداده كان هؤلاء المحلفون أكثر ميلاً للحكم بإدانة المتهم مقارنة بالمحلفين الذين شاهدوا الشهادة المتكررة التقليدية والمرتبطة بشهادة طفل لم يتم إعداده للشهادة .

فالشهادة المشخصة تجعل المحلفين يميلون إلى مزيد من الإدانة convictions مقارنة بمن شاهدوا الشهادة التقليدية والذين شاهدوا شهادة الطفل الذي لم يسبق إعداده للشهادة .

ما الذي أسفرت عنه هذه التجربة ؟

إنها تضيف مصداقية credibility كذلك فإنه ليس من الضروري أن تكون شهادة الطفل المجني عليه في جريمة الاغتصاب الجنسي شهادة نمطية تتفق مع كل الحالات ، ومع ما يصوره الخبير عن ضحايا هذه الجريمة من الأطفال .

هناك فروق فردية في القضايا وفي المتهمين وفي المجني عليهم ، وهناك عوامل تتفاعل في كل قضية ويؤثر بعضها في البعض .

ولذلك فإن كل قضية ، في واقع الحال ، عبارة عن بحث علمي دقيق وفريد في بابه يقوم بها القاضي حيث يصف الواقعة كما وقر في وجدان المحكمة وظروفها وملابساتها والأدوات المستخدمة فيها ومكان حدوثها ويحدد فاعليها ودوافعهم في ارتكاب الجريمة ودور كل متهم في إحداث الوفاة أو الإصابات ومسئولية كل منهم ويرد على ما أبداه الدفاع من دفوع ومن طلبات وخاصة إذا كان الطلب جازمًا من قبل المحامى فكل قضية عبارة عن بحث علمي واقعي وقانوني تستعرض فيه المحكمة النصوص القانونية التي حكمت بموجبها .

دراسة العوامل المؤثرة في شهادة الخبراء في قضايا الاعتداء الجنسي على الأطفال :

هناك عوامل يفترض أنها تؤثر في شهادة الخبراء أمام المحاكم في قضايا الاعتداء الجنسي على الأطفال ، من ذلك ما يلي :

1) في حالة تزويد المحلفين بمعلومات علمية عن القدرات العقلية أو المعرفية للأطفال cognitive abilities كالتفكير والإدراك والتعلم والتذكر . ووسائل مثل التمييز بين الحقائق والخيال ، وكذلك تأثير عامل الإيحاء أو القابلية للإيحاء suggestibility لدى الطفل ، ومعروف أن ، هناك أناسًا يتأثرون بالإيحاء أكثر من غيرهم ، ويبدو هذا التأثير في الإدراك الحسي عندهم ، وفي توجيههم نحو سلوكيات خاصة بل حتى الإيحاء بالصحة أو بالمرض ، ولذلك يستخدم الإيحاء لعلاج بعض الأمراض حيث يوحى المعالج للمريض أنه قد تحسن وأنه قد شفى .

2) رد الفعل السلوكي للاعتداء الجنسي ، ويتضمن هذا أعراضًا مثل الانسحاب أن الانطواء والقلق أو الحصر ، والاستجابات الشائعة بين الأطفال في مثل هذه المواقف والمعلومات والحقائق العلمية المتعلقة بالشخصية وبالنمو العقلي ، والنفسي ، والاجتماعي ، و الأخلاقي ، والروحي ، وكذلك عمليات مثل الإدراك والتذكر والنسيان والتعلم والحفظ ، وكذلك الأمراض والاضطرابات العقلية والنفسية والسلوكية ، أو جوانب الشذوذ في سلوك الإنسان مثل السرقة والإدمان والسلوك المضاد للمجتمع والميل إلى خرق القانون وهدر القيم ، ويقدم حقائق عن سلوك الاغتصاب واللواط والانطواء والانسحاب من المجتمع وما إلى ذلك ، كالقلق والهستيريا والوسواس والسلوك القهري ، والفوبيا أي المخاوف الشاذة ، وتوهم المرض والاكتئاب .

ومن الممكن أن تنمو أسئلة المحقق بناء على الإجابات التي يدل بها الشاهد أو المجني عليه ، حيث توحي له هذه الإجابات بنقاط أخرى تعمق فهمه للدعوى محل التحقيق .

ولقد تبين أن قرارات المحلفين Verdicts عندما يقدم الأخصائي النفسي على أنه خبير معين في المحكمة تختلف عما إذا قدم لهم على أنه من الخارج وجاء للشرح فقط court-appointed أو عبارة عن موجه أو معلم نزيه ومحايد وغير متحيز impartial educator ويتعين أن يقوم الخبير بإبداء آرائه ليس لتأييد سلطة الاتهام prosecution أو سلطة الدفاع defense وإنما

بالحيدة المطلوبة إظهارًا للعدالة فقط ، وفي جميع الأحوال يقوم القاضي بمناقشة الخبير وتوجيه الأسئلة له . ولقد أجريت بعض الدراسات الأمريكية حول مدى تأثر المحلفين في قراراتهم بما لديهم من اتجاهات حول صحة شهادة الطفل ، حيث تم تطبيق استبيانات على مجموعة من المحلفين لمعرفة اتجاهاتهم ثم تم عرض القضية عليهم بعد ذلك ، ووجد أن الاتجاهات السابقة تؤثر في مقدار حكمهم بالإدانة conviction .

وفي الأوساط القضائية وفي أوساط النيابة العامة هناك قضاة أو مستشارون يعرفهم زملاؤهم بأنهم يميلون إلى الإدانة .

تحليل شهادة الخبراء في جرائم الاغتصاب :

كثيرًا ما يجد المدعي prosecutor صعوبة في الحصول على قرار بالإدانة مؤسسًا فقط على أقوال المجني عليه أو الضحية في جرائم الاغتصاب ، كذلك فإن ما يوجد لدى العامة من إنكار نمطية حول جريمة الاغتصاب ، قد يؤثر في شهادة المجني عليها ، وبالتالي مصداقية أقوالها credibility فهناك مفاهيم وتصورات خاطئة حول هذه الجريمة misconceptions ، ولقد أجريت دراسات أمريكية تم خلالها تحليل هذه الجريمة ، وأقوال الضحايا ، من منظور اجتماعي ، وعقلاني أو معرفي . ومعروف أن هناك نسبة قليلة بين النسوة يتهمن الرجال زورًا باغتصابهن على اثر فسخ الخطوبة أو انتقامًا من الرجل بسبب ما ، كذلك هناك نسبة من جرائم الاغتصاب يرتكبها أناس من معارف الضحية أي ممن يعرفونها ، كذلك من بين التراث الشائع عن جريمة الاغتصاب أنها في جوهرها جريمة عنف a crime of violence أكثر من كونها جريمة لذة أو متعة جنسية ، فالهدف الرئيسي لدى الجاني هو إلحاق الأذى بالمرأة أكثر من استدرار اللذة الجنسية a crime of passion .

ومن الآراء الشائعة حول هذه الجريمة وجود دور ما للمرأة في وقوع الاعتداء عليها كأن تظهر في الطرقات أو في الأماكن الخالية وهي شبه عارية أو تظهر أي علامة من علامات الإغراء أو الآثارة أو الموافقة ، كذلك من المعروف أن الإنسان يتأثر في أحكامه بما يعلم أنه إجماع الناس حيث يتأثر برأي الجماعة أو الأغلبية ، ولقد كشفت هذه الدراسات أن النساء من المحلفات يميلن أكثر من الرجال إلى إدانة المتهم في جريمة الاغتصاب ، كذلك فإن هؤلاء النسوة لم يعبرن عن إدانة أو مسئولية للمرأة المغتصبة بمعنى أنه لم يكن لها دور في وقوع

الجريمة مثل الآثار ة أو تشجيع الجاني بصورة أو أخرى ، كذلك قلة من هؤلاء النسوة قررن أن الضحية قد وافقت على الفعل الجنسي قبل الاغتصاب ثم أبلغت الشرطة بالجريمة بعد ذلك . كذلك قررت المحلفات أن المرأة الضحية صادقة أي لها مصداقية في أقوالها ، وكذلك أظهرت السيدات الرغبة في صدور أحكام أكثر شدة أو قسوة على الجناة في جرائم الاغتصاب . كذلك يتم الاستعانة بعلماء النفس في المحاكم حين نظر الدعاوى التي يكون الشاهد فيها أو المجني عليه قد فقد الذاكرة ثم استعادها ، وذلك للتحقق من ثبات الشهادة ، ويتطلب ذلك الاستفسار عن حالة الشاهد أو المجني عليه في حالة الإدراك أي وعيه بالحادثة ، ومن ثم تسجيلها في ذاكرته encoding ، وكذلك الاستفهام عن الظروف التي حدث فيها استعادة الذاكرة recovered . وما هو مبلغ المصداقية في الشهادات المؤسسة على الذاكرة بعد استعادتها . هنا يلزم معرفة خصائص كل من المحلفين ، والضحية ، والمتهم ، وظروف الدعوى الجنائية .

وتدل الدراسات الميدانية في هذا الصدد على أن المحلفين يعتريهم الشك حول مصداقية هذه الشهادة الناجمة عن ذاكرة فقدت ثم أعيدت لصاحبها . هنا يحتاج المحلفون إلى الإلمام بالتراث العلمي حول فقدان الذاكرة ثم استعادتها ، من ذلك إمدادهم بتعريف علمي عن الذاكرة التي يسترجعها صاحبها ، وذلك وفقًا لما تقرره جمعية علم النفس البريطانية في تقريرها The British psychological society Reports الصادر في عام (1995) والمعلومات التي يزود بها المحلفون قبل المحاكمة ، إلى أي مدى هذه الشهادة صادقة Valid ؟ . الخبرات القديمة يمكن نسيانها ثم استعادتها ، ولكن ما هي العملية التي يتم ذلك من خلالها ، وقد تكون هذه الذكريات غير دقيقة ، وقد تتأثر بعوامل مثل الإيحاء ، وعوامل مثل التنويم المغناطيسي . أي إلى أي مدى يصدق المحلفون أقوال الضحية ، وعما إذا كانت الشهادة يتوفر فيها ركن الصدق والحقيقة والإدانة ، أو عما إذا كانت هذه الشهادة قد تأثرت بالكذب العمدي أو بطريق الخطأ ، ومدى تأثير حكم المحلفين ، وحكم المحكمة ؟

أهمية المعلومات العلمية :

ولقد تبين أن عرض المعلومات العلمية على المحلفين أو من يقوم بدورهم في هذه التجربة يقلل من أحكام الإدانة أو القرار بان المتهم مذنب ، آثار ة هذه القضية تجعل من الضروري إجراء المزيد من الدراسات التي تطبق على عينات تمثل المجتمع المسحوبة منه تمثيلاً

دقيقًا لمعرفة مدى تأثير عوامل مثل :

1) خلفية المحلفين .
2) عامل السن عندهم .
3) عالم الجنس .
4) عالم السلالة أو العرق .
5) عامل الدين .
6) نوع المهنة .
7) المستوى الاجتماعي والاقتصادي .
8) المستوى التعليمي للمحلفين .
9) ومدى تأثير الأدلة التي يقدمها الخبراء .
10) الأفكار الشائعة لدى العامة حول هذه القضية أي قضية الذكريات المفقودة التي يتم استعادتها .

شهادة الخبراء في القضايا التي تعتمد على الذكريات التي تم استرجاعهم expert testimony in recovered memory cases ومن أشهر هذه القضايا قضية قتل ، كان المتهم فيها شخصًا أمريكًا اسمه جورج فرانكلين في كاليفورنيا The trial of George Franklin in California ، وقد اتهمته ابنته بقتل فتاة في وقت يرجع إلى عام 1969 عندما كانت هذه الفتاة القتيلة وكذلك ابنة هذا المتهم في سن 8 سنوات ، هذه الذكريات ظلت كامنة لمدة (20) عامًا ، وعندما قامت الشرطة السرية بالقبض على هذا المتهم لاحظ رجال الشرطة بعضًا من الأعمال أو الأنشطة أو السلوكيات التي تدل على وجود انحراف الهيام بالأطفال pedophile وهو انحراف جنسي شاذ . وفي أثناء جلسات العلاج لابنته هذا المتهم تذكرت أن أباها اعتدى جنسيًا عليها . ولكن لوحظ وجود تناقض في أقوالها وتفسيرها للجريمة منذ أن استعادت الذاكرة حتى يوم المحاكمة لدرجة أن تبين أن " ذكرياتها " عن الجريمة كانت مستمدة مما تناولته أجهزة الإعلام في وصف هذه الجريمة .

ولذلك استعدت المحكمة الخبراء المتخصصين في معرفة صحة الشهادة ومصداقيتها ، وذلك لكي تستنير المحكمة حول تأثير الصدمة التي يتعرض لها الشاهد على ذاكرته The effects of trauma on memory وكان الطبيب العقلي الذي استدعته المحكمة يعمل لجانب الادعاء prosecution ، بينما كان هناك خبير آخر يعمل لصالح هيئة الدفاع ، الخبير الأول أعطى شهادة تؤيد صحة شهادة الطفلة ، في حين قدم خبير الدفاع أبحاثًا وأدلة علمية

تؤكد أن تعرض الفرد للضغوط أو الخوف أو الفزع أثناء إدراكه وستجيله للأحداث في ذاكرته تؤثر في صحة عملية إدراك الأحداث وتسجيلها ، أثناء عملية التسجيل encoding في الذهن ، وعلى ذلك يمكن إعاقة تذكر الأحداث التي تمت تحت ظروف من الضغط والصدمة .

خطأ في عملية الإدراك الأولى للواقعة + خطأ في استعادة الذكريات الماضية

هذه الحالة تعوق استرجاع الأحداث can impair recall ، كذلك قدم هذا الخبير أدلة علمية حول عدم دقة التذكر إذا تعرض الشاهد لأسئلة إيحائية suggestive questioning ولكن العلميات اللاشعورية مثل عملية الكبت لا يمكن إخضاعها للتجريب والقياس . لا يمكن للخبير أن يدرس العمليات اللاشعورية لكي يثبت أو ينفى عملية عقلية لا شعورية an unconscious mental process لأنها عملية داخلية لا يشعر بها الفرد ولا يعيها ومن ذلك عملية الكبت أي النسيان اللاشعورى للأحداث ، ولا يدركها بل لا يعترف بها لنفسه ولا لغيره . لا يستطيع العلماء حتى الآن معرفة ماذا يحدث داخل شعور الإنسان ، لعدم وجود علامات خارجية تدل على ما يحدث في داخل الإنسان أو ما الذي حدث للإنسان في الماضي . ولذلك أكد هذا الخبير أن نتائج أبحاثه تنطبق فقط على الأمور الحقيقية أو الواقعية الملموسة أو المحسوسة والتي يمكن التحقق من صحتها أو بطلانها ، ولكن نتائجه لا تتناول المجهول أو غير المعلوم ، وذلك الذي لا يمكن التحقق من صحته أو بطلانه أو قياسه أو ملاحظته على اعتبار أن العلم يقوم على دعامتين هما الملاحظة والتجربة only apply to the real and verifiable and not to the unknown and unverifiable في هذه الدعوى قضى المحلفون بإدانة المتهم بالقتل من الدرجة الأولى first degree murder وتمت إدانته في شهر نوفمبر من العام 1990 ، وذلك على جريمة قتل ارتكبها في العام (1969) ولكن في العام (1998) أعيد النظر في أدلة إدانة هذا المتهم ، لعدة أسباب ، منها أن الدفاع لم يسمح له بأن يقدم تفسير الصحف لمسرح هذه الجريمة ، تلك الصحف التي كان من الممكن أن توضح أن شهادة أو ذكريات الابنة مستمدة من هذا المصدر ، أي من الصحف ، وليس من الواقع ، ذلك لأنه تبين أن هذه الصحف استعرضت تفاصيل عن الحادث يشبه ما أدلت به هذه الفتاة في شهادتها من واقع استعادتها لذكريات هذه الواقعة ، و لذلك أحيانًا في بعض القضايا

تصدر المحكمة أو النائب العام حذرًا بعدم تناول القضية في الصحافة . وهناك قواعد وفروض يصعب التحقق من صحتها أو بطلانها ، وهناك مؤثرات أو آثار يصعب تكرارها ، من اجل القياس ، كذلك فإن بعض التفسيرات البديلة لا يمكن إنكارها أو رفضها .

وفي المجال القضائي هناك أمور يصعب التمييز بين الباطل منها والصائب أو تلك التفسيرات ولا يمكن أن تكون المحاكم واثقة تمامًا من المعلومات التي يمكن استرجاعها بعد نسيانها . هناك ، ولا شك عوامل تفسر عملية التذكر وأخرى تساعد على صحة الذاكرة . وفي الحقيقة فإن الأدلة العلمية ، وكذلك المحاكم لا يمكن أن تنتظر طويلاً حتى يتمكن العلماء من إجراء الدراسات المستفيضة التي تفصل في بعض الأمور ، هناك حالة من الاستعجال أمام المحاكم للفصل في الدعاوى المنظورة أمامها ، والناس تشكو من طول أمد التقاضي في بعض القضايا ، وهناك حالات كثيرة قد يصاب فيها الإنسان بفقدان الذاكرة amnesia وهى أحد أعراض مرض الهستيريا ، وهى مرض نفسي وظيفي ينسى الإنسان فيه جميع خبراته السابقة أو جزءًا منها ، وهناك اعتبارات أخلاقية قد يشعر بها الخبير ، وخاصة إذا كان سيتولى دور المدافع عن المتهم في قضايا خطيرة أو بشعة كالقتل العمد أو التمثيل بالجثث ، كما حدث في مدينة لوس أنجلوس الأمريكية عندما باغت لص صرافًا يحمل كمية كبيرة من النقود وأطلق عليه عدة أعيرة نارية من ظهره ، وعندما كرر الطلقات للتأكد من قتل المجني عليه قبل أن يتمكن الجاني من الهرب وعندما شاهدت أمرأة أمريكية صورة القاتل على التلفاز قررت أنه هو نفس الشخص الذي سبق له أن أطلق النار على نجلها .

وأحيانًا تقدم الحكومة مبالغ ضخمة جدًا لمن يرشد عن الجناة في أحد الجرائم الهامة ، مما قد يشجع البعض على الادعاء والتلفيق وخاصة إذا كانت العقوبة المقررة هي الإعدام .

ويتساءل بعض رجال القضاء حول مدى توفر الموضوعية والمصداقية في قضايا الاعتداء الجنسي على لأطفال objectivity in child abuse trials المحامى عن الطفل يقف بجانب حقوق الطفل ، وكذلك الأخصائي النفسي ومن ناحية أخرى هناك اضطرابات ضغط ما بعد الصدمة وقد تصيب الأطفال فعلاً بعد التعرض لجريمة الاغتصاب post-traumatic stress disorder كما أن هناك استجابات أخرى للطفل المجني عليه في جرائم الاعتداء على الأطفال .

وفي هذا الصدد أجريت دراسات عديدة وطبق فيها استبيانات على المحلفين وعلى مجموعات يكلفون بالقيام بدور المحلفين ، وذلك في قضايا حقيقية أو من خلال عرض فيلم فيديو يصور أحداث محاكمة ما ، ويتساءل بعض الباحثين على مقدرة الطفل على الإدلاء بشهادة صحيحة capabilities وكذلك طبقت هذه الدراسات على المدعى أو وكلاء النيابة في هذه القضايا prosecution ، وكانت نتائج هذه الدراسات تشير بصورة عامة إلى تأييد شهادة الأطفال في هذه القضايا ، كذلك أتضح أن خلفية المحلف تؤثر في قراره .

ولكن لم يتضح انتقال هذا التأييد إلى قاعة المحكمة the courtroom الذين يعملون في حقل الاعتداء على الأطفال كانوا أكثر تأييدًا لشهادة الأطفال ، ربما لأنهم أكثر إلمامًا بقدرة الأطفال وإمكاناتهم ، وكذلك بمحدودية هؤلاء الأطفال .

وفي جميع الأحوال هناك حاجة لإجراء المزيد من الدراسات حول تأثير عقائد المحلفين في آرائهم .

وقصارى القول ، في هذا الصدد ، فلقد كان الوضع حتى عام 1983 السائد هو أن علماء النفس لا يستطيعون أن يساعدوا الملحفين حول مسألة تذكر شهود العيان لما يشهدون به أمام المحاكم . ولكن استمرت الأبحاث في هذا الميدان الخصب والذي يجمع بين الخبرة السيكولوجية والخبرة القضائية ، وفي عام (1993) تراكمت نتائج الأبحاث وتحسنت نوعية هذه الأبحاث ، واهتم علم النفس الشرعي forensic psychology بعيدًا عن قاعة المحكمة بالنظر في تأثير بعض العوامل السابقة على عقد جلسات المحاكمة ، من ذلك مدى الاستعداد والتهيؤ للإدلاء بالشهادة ، وتم توجيه الاهتمام للدراسات الحقلية أو الميدانية وكذلك الاهتمام بالمعلومات الأرشيفية القديمة ، وكذلك الاهتمام بالدراسات التي تنظر في مسألة تعقد السلوك الإنساني بمعنى أن سلوك الفرد في موقف ما لا يحدده عامل واحد ، وإنما الحقيقة مجموعة من العوامل المتشابكة أو المتداخلة أو المتفاعلة أي التي يؤثر بعضها في بعض ومن ذلك :

1) العوامل الوراثية أي الاستعدادات الوراثية التي تنقل إلينا من الآباء والأجداد .
2) العوامل الميلادية أي مؤثرات الحمل والولادة .
3) العوامل البيئية كالتربية والتغذية والحوادث والإصابات والأمراض والفقر والحرمان .

وكذلك تم الاهتمام بدراسة مقدار تأثير الإيحاء على الشاهد وقابلية بعض الناس للإيحاء

أكثر من غيرهم ، وتخطت هذه الدراسات المعملية ، وتقديم أفلام فيديو بالقضايا إلى إجراء المقابلات الحقيقية ، حيث يتم زرع الذكريات أو غرسها في ذهن الفرد في فترة محددة من الزمن . وانتقلت الدراسة من بحث عملية تسجيل الذكريات أو المعلومات في ذهن الفرد إلى الإجراءات التي تستخدمها الشرطة في الواقع وذلك بقصد التعرف على العوامل التي تؤثر في قرارات المحلفين .

كانت معظم عينات الدراسة من غير المحلفين الحقيقيين ، وإنما من طلاب الجامعة أو البحثين والآن هناك حاجة لدراسة المحلفين أنفسهم في محاكمات حقيقية real trials والآن أصبح هناك مزيد من الاتصال والتواصل بين علماء النفس والمحامين ورجال النيابة والقضاء والشرطة ومن ذلك صدور كتاب علمي متخصص في هذا الشأن يرسخ ويدعم ويقوى التعاون بين علماء النفس ورجال القضاء والشرطة والنيابة أو سلطات التحقيق والمحلفين وهو كتاب علم النفس في المجال القضائي أو في الحقل القضائي The handbook of psychology in legal contexts حرره أحد المحامين الأمريكان المشاهير وهو David Carson بالاشتراك مع احد علماء النفس وهو Ray Bull ، ولقد قوبل هذا العمل العلمي بالقبول الجيد في الأوساط الأمريكية والعالمية ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية أصدرت المحكمة العليا في أريزونا The Arizona Supreme Court قرارًا بسقوط الدعوى overturn وحكم بالإدانة صادر من المحلفين guilty verdict تأسيسًا على عدم استدعاء خبراء في فحص شهادة شهود العيان .

الأدلة التي يقدمها الخبراء للمحاكم تفيد في توفير المعرفة العلمية أو الأسس العلمية والفهم أو الاستبصار العلمي مما تستفيد منه المحاكم في قراراتها ، هناك مجالات كثيرة للبحث في القضايا المشتركة بين علماء النفس ورجال القانون والشرطة ، وهناك حاجة لمزيد من التعاون بين علماء النفس ورجال الاختصاص القانوني والشرطي والنيابي legal professionals في كثير من المجالات خدمة للعدالة وسموًا بهذا القطاع الحيوي من قطاعات مجتمعنا العربي الذي يحاول جاهدًا اللحاق بركب تطور العصر[1] على أسس علمية وموضوعية وعادلة وشفافة والاستفادة من العلم والمنهج العلمي في جميع مناحي الحياة العصرية .

(1) Memon, A. and others (1998) psychology and law, McGrw – Hill, London, p. 222.

المراجع :

- بهنام ، رمسيس (1979) علم النفس القضائي ، سبيل السمو بمرفق العدالة إلى مزيد من الأداء والفاعلية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية / مصر .
- الشربيني ، لطفي ، (2001) الطب النفسي والقانون ، أحكام وتشريعات الأمراض النفسية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان .
- مرسى ، عبد الواحد إمام ، (1999) التحقيق الجنائي علم وفن بين النظرية والتطبيق ، الناشر ، المؤلف نفسه ، القاهرة .
- مراد ، عبد الفتاح ، (ب ت) التحقيق الجنائي التطبيقي ، الناشر ، المؤلف نفسه ، الإسكندرية / مصر .
- Memon, A . and others, (1998) psychology and law, truthfulness, accuracy and credibility, Mc Graw–Hill Book Company, London .
- Reber, A.S., (1995) Penguin Dictionary of Psychology, Penguin Books, London.

obeikandl.com